

الاستنارة بين الذات والآخر.. مقارنة قرآنية



تمثل "الاستنارة": حالة كيفية ونوعية من "الوعي _ الفاعل" بحقيقة "الذات" و "الواقع" و "المحيط".. فلا بد فيها من الوعي "بالذات الحضارية والثقافية" والمعرفة الواعية "بالآخر الحضاري والثقافي" أيضا..

والذين تقف ثقافتهم عند موروثهم الفكري لا تتعداه، هم _ في أحسن الأحوال _ كمن ينظر بعين واحدة، فلا يبصرون إلا ذاتهم، أو كالأعمى الذي لا يدرك من الوجود غير جسده الذي يتحسسه بيديه! وكذلك حال ثقافة الذين ضربت عقولهم في "المصانع الفكرية" للحضارات الأخرى، الذين جهلوا مواريتهم، وهوية أمتهم، وثقافة الحضارة التي يحملون أسماءها، وإلى شعوبها ينتسبون.. إنهم مستنبرون.. لكن استنارتهم لا ترى غير الآخر، ولهم وعي، لكن وعيهم لا يدرك الذات الحضارية التي يستطلون بعنوانها العقدي والوطني والقومي والثقافي.

ومن هنا، كانت الاستنارة الكاملة الفاعلة هي الوعي الحقيقي "بالذات الحضارية" و "بالآخر الحضاري"، وإدراك وإعمال قوانين الأخذ والعطاء، والتفاعل الصحي بين تيارات الفكر الإنساني، وثمرات العقول في مختلف الثقافات والحضارات..

فالذين يكتفون "بذاتهم" الثقافية والحضارية. لابد وأن يفقدوا هذه "الذات" إلى الذبول والاضمحلال،

مثلهم في ذلك كمثل المضرب عن الطعام، يعيش على الذات حتى يستهلك مكوناتها! وكذلك الذين يتجاهلون أو يجهلون "الذات" الثقافية والحضارية لأمتهم، ويتقمصون "ذوات" الآخرين، لابد وأن تنتهي هذه "الذات" _ التي فرطوا فيها _ إلى الذبول والاضمحلال!.. فمعرفة النفس لا تغني عن معرفة الآخرين.. والعكس صحيح..

ولا يحسن أحد أن هذا المنهاج _ في الاستنارة الحقيقية _ هو وليد الواقع المعاصر، وما شهد ويشهد من تسارع وتعاطف في ثورة وسائل الاتصال.. فمن القرآن الكريم نتعلم المنهاج الذي يدعونا _ بعد الوعي بالذات، واليقين بالحق الذي نؤمن به، وننتمي إليه، ونجاهد في سبيله _ . يدعونا هذا المنهاج القرآن إلى التعرف على الآخرين.. بل والتأمل فيما يقولونه عنا، والتدبر في "صورة ذاتنا" لدى هؤلاء "الآخرين".

إن عالمية الإسلام تفرض على أمتة _ كي تحقق القيام بفريضة الدعوة إليه _ تحقيق مستويات ثلاثة في الدعوة إلى هذا الدين:

- 1_ تبليغ الدعوة الإسلامية إلى الآخرين.
 - 2_ وإقامة الحجة، بصدق الإسلام، على هؤلاء الآخرين.
 - 3_ وإزالة الشبهة، عن الإسلام، لدى هؤلاء الآخرين.
- وبدون المعرفة بالآخر، والوعي بما لديه من عقائد و "أيديولوجيات" وموارث فكرية وثقافية، يستحيل إنجاز هذه الأركان في فريضة الدعوة إلى الإسلام..
- وليس كالقرآن كتاباً اعتمد "المقارنة" منهاجاً في إثبات الحق الإسلامي، عندما عرض هذا الحق مقارناً بما لدى الشرك والوثنية والإلحاد والتحريف من دعاوى وموارث.. (قالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحَرُونَ وَإِخْلَاقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصافات/95_96).

وفي تقرير صفات الكمال للذات الإلهية، ينساب المنطق القرآني إلى العقول والقلوب عندما يأتي في معرض المقارنة مع بضاعة الآخرين: (واذكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبراهيمَ إِذْ نَزَّهَ كَانُ صَدِّيقاً نَبِيّاً إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصَرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً) (مريم/41_42).

وليس كالقرآن كتاباً سعى إلى استنطاق الآخرين كل ما لديهم من "حجج وبراهين" على ما يعتقدون: (وقالوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة/111).. (سيقولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّ مِنَّا مِنْ شَيْءٍ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا الظَّالِمِينَ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) (الأنعام/148).. (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الأحقاف/4).

وليس كالقرآن كتاباً اهتم "ببضاعة" الآخرين _ العقيدية والفكرية _ على ما بها من سقم وعوج ونها فت..

فهو يثبت ما تحدثوا به عنه _وهو المعجز المتحدى_ عندما قالوا: (... إن هذا إلا أساطيرُ الأولين)(الأنعام/25).. (بَلْ قالوا أضغاثُ أحلامٍ بل افتراءهُ بل هُوَ شاعرٌ فليأتنا بآيةٍ كما أُرسلَ الأولون)(الأنبياء/5)..

ويثبت ما وصفوا به الصادق الأمين (ص) عندما قالوا عنه: (هذا ساحرٌ كذابٌ)(ص/4). ويثبت الفلسفة الدهرية _على بؤسها_ عندما تعلقوا بحبالها: (وقالوا ما هي إلا حَيَاتنا الدُّنيا نموتُ ونحيا وما يُهلكُنَا إلا الدُّهر وما لَهُم بِهِمْ بِذلك من علمٍ إن هُم إلاَّ يَظُنُون)(الجاثية/24). ويخلد "منطقهم" العجيب، الذي انحاز للشرك، متعجباً من التوحيد! (أَجَعَلَ الآلهةَ إلهاً واحداً إنَّ هذا لشيءٌ عَجَبٌ)(ص/5).

يتتبع القرآن الكريم "مقالات" الآخرين، فيفندها، ثم لا يطوي صفحتها متجاوزاً إياها، وإنما يثبتها آيات في سورة نلونها ونتعبد بها، ليرسي دعائم هذا المنهاج في مقارنة العقائد والفلسفات والأفكار. بل إننا نتعلم من هذا المنهاج القرآني، أن الذين يصادرون الفكر الآخر، ويغلقون دونه الأسماع والأبصار إنما كانوا هم المشركين.. فتجاهل الفكر الآخر، والصد عن سماعه وتأمله وتدبره ليس منهاج أهل الإيمان.. والمشركون هم الذين يُلَهون ويصرفون أنفسهم وذويهم عن القرآن: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)(لقمان/6).. فلقد رفعوا شعار التعمية على هذا الذي خالف ما وجدوا عليه آباءهم وكبراءهم: (وقالَ السَّادِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُون)(غصن/26).. فلقد حسبوا أن الراحة والغلاب في التعمية على هذا الذي لم يألفوه، والكتمان لهذا الذي لا يهوون، والمصادرة لهذا الذي لا يريدون!..

هذا هو المنهاج القرآني في التعامل مع الفكر الآخر _حتى عندما كان شركاً صريحاً وكفراً بواحاً_ ووثنية جاهلية ودهرية حيوانية، مصادمة للفطرة السوية التي فطر الله عليها الإنسان في الإيمان.. واليوم.. ونحن نعيش واقعاً عالمياً، إن هدأت فيه أدوات القتال الدامي حيناً، اشتدت فيه آليات التدافع الفكري، بل والغزو الثقافي، والاجتياح الإعلامي، في كل الأحيان.. في هذا الواقع، نرى فكر الآخرين يقتحم على عقولنا وقلوبنا حتى مخادعنا التي نستكن فيها!.. وكذلك يتاح لفكرنا _هو الآخر_ أن يصل إلى الآخرين في عوالمهم، الأمر الذي أحدث تغييراً نوعياً في المواقع الفكرية على خارطة الواقع المعاصر.. فلم يعد الفكر الآخر خارج الحدود، ولا حتى متربصاً ومتلصصاً على النوافذ والأبواب، وإنما غداً في داخل حصوننا، قامت وتقام له المراكز والمؤسسات والجامعات والصحف والمجلات.. بل إنه يمتطرنا صباح مساء وآناء الليل وأطراف النهار من أقماره الصناعية السابحة في سمواتنا بلا حواجز أو حدود!..

كما أصبحت لنا _نحن أيضاً_ رغم حالة الاستضعاف وقلة الإمكانيات _مراكز إشعاع فكري في ديار الآخرين، تؤتي _بقوة الحق الإسلامي، وجاذبية الفطرة فيه_ من الثمرات ما يعوض سلبات الاستضعاف وقلة

الإمكانات!..

لقد اثمر هذا الواقع الجديد _الذي أحدثته ثورة وسائل الاتصال _ لوناً من "التلاحم الفكري" العالمي، الأمر الذي فرض ويفرض على مختلف فرقاء التدافع الفكري الوعي بما لدى الآخرين.. فلقد أصبح هذا الوعي ضرورة للقبول وللرفض على حد سواء!..

وإذا كانت القضية، بالنسبة لنا، تتعدى حدود "المغالبة الدنيوية" في عالم الأفكار، إلى حيث هي فريضة دينية _أيضاً_ لإبلاغ الدعوة إلى الإسلام، وإقامة الحجة على صدقه، وإزالة الشبهة عن عقول المشتبهين فيه.. فإن الوعي بما لدى الآخرين عن "ذاتهم" وعنا يصبح _هو الآخر_ فريضة إسلامية على الذين انتدبوا أنفسهم للرباط الفكري على ثغور الإسلام _الدين.. والحضارة.. والأمة.. والديار_ هذه الشريحة من أهل العلم، الذين تحدث عن رسالتهم هذه رسول الله (ص) عندما قال: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين".